Al-Dirasat Al-Islamiyyah (Islamabad) 43:1 (2008)

بسم الله الرحمن الرحيم

منهج الغزالي في قراءة القرآن وفهمه

رضوان جمال الأطرش

ملخص البحث:

لما بدأ بعض الناس ينصرف عن الباطن ومن اللبّ إلى القشر في الاتصال بالقرآن، واشتد الاهتمام بالرسوم الشكلية كالغلوّ بالتجويد والنطق والانشغال عن كنوز المعاني الكامنة في كتاب الله إلى علوم الفقه والكلام والشعر وغيرها، أدّى ذلك إلى التخلف عن العمل به، ذلك أن القرآن ينبغي لقارئه أن يتلقاه بالهيبة والإجلال، لأن العبد ليتلو القرآن فيلعن نفسه وهو لا يعلم، يقول: ﴿أَلاَ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِيْنَ﴾[1] وهو ظالم نفسه، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَعْنَتَ اللهِ عَلَى الكَاذِبِيْنَ﴾[2] وهو منهم.

لكن فهم القرآن بعمق والاهتمام بباطنه يبني النفس الإنسانية من الداخل، وهو أمر لا يمكن الاستغناء عنه، وهو هدف رئيس لتكوين الأخلاقيات والأعمال الفاضلة، لأن كافة أشكال السلوك إنما هي تعبير عن محتوى الإنسان الداخلي، فإن لم تتشكل الذات الداخلية للإنسان جيداً فلا يمكن ضمان سلوكيات الخير والبرّ. ولا يكون البناء الخارجي إلا هيكلاً خاوياً.

مقدمة:

لما رأى الإمام الغزالي عن قرب ممارسة الناس، وكيف بدأوا يتعاملون مع القرآن الكريم، وجد أن هممهم صارت مقتصرة على التعامل الظاهري من خلال الرسوم الظاهرة، كالنطق الفصيح والتلاوة المتقنة بأحكام التجويد، واتخذ بعض الناس القراءة وسيلة للتكسب والشهرة، والانشغال عن معانيه الباطنة العظيمة بعلوم أخرى كالفقه والكلام والشعر، وأطلق على تلاوتهم بأنها تلاوة الغافلين. فصرّح في

١- سورة هود، الآية: ١٨.

٢- سورة آل عمران، الآية: ٦١.

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

أكثر من موضع، أن هناك هوّة عميقة بين الفقهاء الذين اهتموا بظاهر النص وأصبحوا محجوبين عن الحقيقة، وبين المتصوفة الذين اعتنوا بباطنه فهم أرباب الحقائق. ففي كتاب آداب تلاوة القرآن من **الإحياء**، قسم الأعمال إلى ظاهرة وباطنة، وعدّ هذا التقسيم ضرورة لا بد منها، لأن الناس غفلوا عن الباطن وانصرفوا إلى الظاهر، مهتمين بالرسوم الشكلية وبعلوم الفقه والكلام والشعر وغيرها، وهذا في تصوره مذموم، باعتباره يمنع عن العمل به، ذلك أن القرآن ينبغي لقارئه أن يتلقاه بالعظمة والهيبة والإجلال، وهو هنا يستشهد بقول أحدهم: إن العبد ليتلو القرآن فيلعن نفسه وهو لا يعلم، أن الله يقول: ﴿ **أَلاَ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِيْنَ** ﴾[٣] وهو ظالم نفسه، وقوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَعْنَتَ اللهِ عَلَى الكَاذِبِيْنَ** ﴾[٤] وهو منهم. وبقول أبي سليمان الداراني: الزبانية أسرع إلى حملة القرآن الذين يعصون الله عزّ وجل، منهم إلى عبدة الأوثان حين عصوا الله سبحانه وتعالى بعد القرآن[٥]. وهو في هذا يمتدح شأن الصوفية والعارفين الذين اهتموا بالمعاني الباطنة دون الظاهر منها.

وهو هنا يشير إلى الهدف من إحياء منهج الاهتمام بالقراءة الباطنة للنصوص القرآنية، لأنه يعين على بناء النفس الإنسانية من الداخل، وهذا ضرورة لا يمكن الاستغناء عنها، وهو هدف رئيس لتكوين الأخلاقيات والأعمال الفاضلة، لأن كافة أشكال السلوك إنما هي تعبير عن محتوى الإنسان الداخلي، فإن لم تشكل الذات الداخلية للإنسان جيداً، فلا يمكن ضمان سلوكيات خيرة، ولا يكون البناء الخارجي إلا هيكلاً خاوياً.

آراء مخالفة لفكرة الغزالي في التعارض بين الفقه والتصوف:

هذه الآراء المخالفة لفكرة الإمام الغزالي في التعارض، قال بها علماء صوفيون أقطاب، منهم مثلاً الإمام الجنيد، والذي ظهر لنا فيه أن الغزالي خالف دربه وسار على درب جديد، يقول الجنيد: "مذهبنا هذا مقيد بالأصول: الكتاب والسنّة، فمن لم يحفظ الكتاب ويكتب الحديث ويتفقَّه، لا يُقتدى به"[٦]. وقال الشعراني: "دوروا مع الشرع كيف كان، لا مع الكشف فإنه يخطئ، وينبغي إكثار مطالعة

٣- سورة هود، الآية: ١٨.

٤- سورة آل عمران، الآية: ٦١.

٥- الإمام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **إحياء علوم الدين**، تحقيق: سيد عمران، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٥هـ/ ١٩٩٢م، ج ١، ص ٣٦٠.

٦- انظر: أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي البصري، **رسالة المسترشدين**، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: الأستاذ عبد الفتاح أبو غدة، دار السلام، القاهرة، ط ٦، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص ٨٢. نقله المحقق عن: الشيخ ابن القيم، **إغاثة اللهفان**، ج ١، ص ١٢٥.

كتب الفقه، عكس ما عليه المتصوفة الذين لاحَت لهم بارقة من الطريق فمنعوا مطالعة الفقه! وقالوا: إنه حجاب، جهلاً منهم!"(٧).

ومن هؤلاء العلماء الكبار ابن رجب الحنبلي، فقد صب جام غضبه على من يتجاهل الشريعة، حيث قال: "وكثير ممن يدَّعي العلم الباطن ويتكلم فيه: يذمُّ العلمَ الظاهر الذي هو الشرائع والأحكام والحلال والحرام ويطعن في أهله ويقول: هم محجوبون وأصحاب قشور! وهذا يوجبُ القدحَ في الشريعة المطهرة، والأعمال الصالحة التي جاءت الرسل بالحثّ عليها والاعتناء بها، وربما انحلَّ بعضهم عن التكاليف وادّعى أنها للعامة، وأما من وصَلَ فلا حاجة به إليها، وأنها حجاب له! وهؤلاء كما قال الجنيد وغيره من العارفين: وصلوا، ولكن إلى سقر. وهذا من أعظم خداع الشيطان لهؤلاء، لم يزل يتلاعب بهم حتى أخرجهم عن الإسلام. ومنهم من يظن أن هذا العلم الباطن لا يُتَلقَّى من الكتاب والسنة! وإنما يُتلقَّى من الخواطر والإلهامات والكشوفات!! فأساؤوا الظنَّ بالشريعة الكاملة، حيث ظنّوا أنها لم تأت بهذا العلم النافع، الذي يوجبُ صلاحَ القلوب، وقربَها من علاّم الغيوب! وأوجب ذلك لهم الإعراضَ عما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الباب بالكلية! والتكلُّمَ فيه بمجرَّد الخواطر، فضلّوا وأضلّوا"(٨).

فهذه حملة شديدة قام بها الجنيد والشعراني وابن رجب على المتصوفة الذين انصرفوا إلى علم الباطن وحكموا على الفقهاء بأنهم محجوبون وأصحاب قشور، وعطلوا علوماً كبيرة مثل: الفقه والتفسير والشعر، وأرادوا تعطيل الشريعة وأحكامها من حلال وحرام. وهذا عندهم لا يعني إلا شيئاً واحداً، هو التحلل من التكاليف بوصفها حالة ملازمة للعوام وليس للخواص.

ومن الجدير ذكره أن التصوف منذ القرن الثالث تميز على علم الفقه من ناحية الموضوع والمنهج والغاية.. ولاشك أنه كان لحركة تدوين العلوم الشرعية التي سبقت تدوين التصوف أثر في ذلك، على نحو ما يقول ابن خلدون: "فلما كتبت العلوم ودوِّنت، وألّف الفقهاء في الفقه وأصوله، والكلام والتفسير وغير ذلك، كتب رجال من أهل هذه الطريقة في طريقهم، فمنهم من كتب في الورع ومحاسبة النفس على الاقتداء في الأخذ والترك.."(٩).

٧- نقله ابن العماد الحنبلي في **شذرات الذهب** في ترجمة الشعراني، انظر: المحاسبي، **رسالة المسترشدين**، ص ٨٣ من كلام المحقق.

٨- انظر: المحاسبي، **رسالة المسترشدين**، ص ٨٣-٨٤ من كلام المحقق.

٩- عبد الرحمن بن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**، وهي مقدمة الكتاب المسمى: **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٨، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ص ٣٨٢.

ويصف ابن خلدون المقابلة بين علمي الفقه والتصوف قائلاً: "وصار علم الشريعة على صنفين: صنف مخصوص بالفقهاء وأهل الفتيا، وهو الأحكام العامة في العبادات والعادات والمعاملات، وصنف مخصوص بالقوم ـ الصوفية ـ في القيام بهذه المجاهدة، ومحاسبة النفس عليها، والكلام في الأذواق، والمواجد العارضة في طريقها، وكيفية الترقي فيها من ذوق إلى ذوق، وشرح الاصطلاحات التي تدور بينهم في ذلك"(١٠).

ولسنا هنا بصدد حملة ضد التصوف وأهله، فقد كان الحسن البصري متصوفاً عالماً ناسكاً عارفاً بالله، قائماً على حدوده، متمسكاً بشريعته، وكان إبراهيم بن أدهم والفضيل بن عياض من جهابذة الإسلام، كذلك كان الإمام المحاسبي من الرعيل الأول من الصوفية الصادقين، وكان إماماً في الحديث والفقه والكلام، وكان تصوفه الذي دوَّنه في كتبه قد راعى فيه ما جاء في الكتاب والسنة، وأقوال الصحابة وأعمالهم، بحسب علمه وفهمه، وما يوجد في كتبه من شطحات أو شيء من التصوف الفلسفي، إنما يقوم تصوفه على الدعوة إلى تصحيح العلم والعمل ومراقبة الله وتزكية النفس(١١). والغزالي نفسه له كتب عظيمة في أصول الفقه مثل **المستصفى** وغيره، والذي يعدّ منهجاً لضبط حركة الفقه، يستعين به الفقهاء لاستنباط أحكامهم، وأمثال أبي محمد عبد القادر الجيلاني، وغيرهم كثير لا يحصى عددهم، ولهم كلام رصين، وحكم شافية، ومؤلفات قيمة في الأصول والفروع، وجميعهم إنما يصدرون في ذلك عن كتاب الله وهدي النبوة، فهؤلاء هم الصوفية حقاً، الصادقون قولاً وفعلاً.

لكن التصوف الحقيقي ـ في تصوري ـ: تربية علمية وعملية وضرورة لا بد منها للنفوس، وهو علاج لكثير من أمراض القلوب، وغرس للفضائل واقتلاع للرذائل وقمع للشهوات وتدريب على الصبر والرضا والطاعات. وباختصار فإن التصوف مجاهدة للنفس ومحاولة لكبح شهواتها ونزعاتها الزائدة عن الحد، وحفظ للقلوب عن الغفلات. وقد جعل الإمام الجنيد باعتباره سيد الطائفة البغدادية ـ كما يعتبره ابن تيمية وغيره ـ عشر معانٍ للصوفية فقال حين سئل عنها: "التصوف: اسم جامع لعشرة معاني: التقلل من كل شيء من الدنيا عن التكاثر فيها، والثاني: اعتماد القلب على الله عزّ وجل من السكون إلى الإسبات، والثالث: الرغبة في الطاعات من التطوع في وجود العوافي، والرابع: الصبر عن فقد الدنيا عن الخروج إلى المسألة والشكوى، والخامس: التمييز في الأخذ عند وجود الشيء، والسادس: الشغل بالله عزّ وجل عن

١٠- نفس المصدر: ص ٣٨٢.

١١- انظر: المحاسبي، **رسالة المسترشدين**، ص ٢٦ من كلام المحقق.

سائر الأشغال، والسابع: الذكر الخفي عن جميع الأذكار، والثامن: تحقيق الإخلاص في دخول الوسوسة، والتاسع: اليقين في دخول الشك، والعاشر: السكون إلى الله عزّ وجل من الاضطراب والوحشة. فإذا استجمع هذه الخصال استحق بها الاسم وإلا فهو كاذب"(١٢).

وزاد الشيخ حسنين مخلوف بقوله: "التصوف معرفة لله ويقين، وتوحيد لله وتمجيد، وتوجُّه إلى الله وإقبال عليه وإعراض عما سواه، وعكوف على عبادته وطاعته، ووقوف عند حدوده، وتعبُّد بشريعته، وتعرُّض لنفحاته وهباته التي يخص بها أولياءه وأحبابه فضلاً منه وكرماً، فهو علم وحكمة، وتبصرة وهداية، وتربية وتهذيب، وعلاج ووقاية، وتقوى وسلامة، وصبر وجهاد، وفرار من فتنة الدنيا وزينتها وابتعاد"(١٣). لكن الفائدة التي يمكن أن نذكرها للتصوف، ملخصة بما قاله أبو العلا عفيفي: "لولا التصوف لكان الإسلام ديناً خالياً من الروحانية العميقة ومن العاطفة، وكانت عباداته ومعاملاته مجموعة جامدة من القواعد والأشكال والأوضاع، ومعتقداته مجموعة من التجريدات، أقل ما يقال عنها أنها تباعد بين العبد وربه، بدلا من أن تقربه إليه، وتورث صاحبها الشك والحيرة والقلق، بدلا من الطمأنينة واليقين"(١٤). فالصوفية لم يشاركوا عامة المسلمين في نظرتهم إلى الدنيا، ولم يشاركوا الفقهاء أو المتكلمين في نظرتهم إلى الدين، ولم يشاركوا الفلاسفة في نظرتهم إلى الله والإنسان والعالم. ولهذا جاء التصوف الإسلامي وكأنه ثورة شاملة على هؤلاء جميعاً.

لكن الذي نرفضه هو التصوف الزائف المنتحل لدى فرقة من الناس، أشربوا في قلوبهم فكر الباطنية الحُلُولية، وأظهروا ذلك حين لبسوا ثياب الصوفية، تلبيساً للعوام، فدسّوا في التصوف الإلحاد. وقد كشف خبأهم وأبطل تصوفهم كثير من العلماء وعلى رأسهم الإمام الجليل ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهم الله تعالى.

القراءة الصحيحة للقرآن عند الغزالي:

القراءة الصحيحة عند الغزالي، كما أوضحها من خلال الباب الثاني في كتاب **الإحياء** المعنون: "في ظاهر آداب التلاوة"، تعتمد على أمرين:

١٢- http://www.alnilin.com/vb/showthread.php?t=15490

١٣- حسنين مخلوف: تقريظ لكتاب **رسالة المسترشدين** للحارث المحاسبي، ص ٨.

١٤- http://www.sunnah.org/arabic/Afaaq.html

الأمر الأول: متعلق بالقارئ:

على القارئ أن يلتزم ببعض الآداب قبل التلاوة وأثناءها، منها:

١- أن يكون طاهراً، فالطهارة أربعة أقسام: طهارة القلب وطهارة البدن وطهارة المكان، وطهارة الثوب. فلا يقرأ القرآن في حال الجنابة[١٥]، قال عثمان وحذيفة رضي الله عنهما: "لو طهرت القلوب لم تشبع من قراءة القرآن، وإنما قالوا ذلك، لأنها بالطهارة تترقى إلى مشاهدة المتكلم في الكلام. ويقول أبو محمد الجريري: "وأما أهل الخصوصية (يعني الصوفية) فأكثر آدابهم في طهارة القلوب، ومراعاة الأسرار"[١٦].

٢- أن يتوجه القارئ نحو القبلة: فذلك أمر نفسي يهيّئ القارئ باستعداد خاص لفهم معاني القرآن الكريم. هذا بالإضافة إلى أن يجلس جلوس المتواضعين، لكنه جوّز قراءة المضطجع وعلى غير وضوء، لقوله تعالى: ﴿**اَلَّذِيْنَ يَذْكُرُوْنَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُوْدًا وَعَلَى جُنُوْبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُوْنَ فِيْ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾[١٧].

٣- القراءة أثناء الصلاة وفي المسجد: أفضل القراءة عند الغزالي أن يقرأ القارئ القرآن في الصلاة وفي المسجد[١٨]، لأنه أشرف الأمكنة وأجمعها للنظافة، وقارئ القرآن هناك يحصل على فضيلة أخرى وهي فضيلة الاعتكاف، وينبغي أن يوقر القرآن فلا يقرأ على شوارع الطرق، بل في مجلس ساكن[١٩]، لكنه جعل الأفضل في قراءة القرآن بقيام الليل، معللاً ذلك بأنه أفرغ للقلب[٢٠]. وفراغ القلب يحتاج إلى ثلاثة أشياء وإلا فلا: الزمان والمكان والإخوان، ومعناه أن الاشتغال بالقرآن في وقت حضور طعام أو خصام أو صارف من الصوارف مع اضطراب القلب لا فائدة فيه، فهذا معنى مراعاة الزمان، فيراعى حالة فراغ القلب له[٢١]. ثم ختم بالقول: إنه لا يقدر على الوفاء بحق حرمة القرآن في كل حال إلا المراقبون لأحوالهم[٢٢].

١٥- الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج ٢، ص ٣٧٩.

١٦- انظر: المحاسبي، **رسالة المسترشدين**، ص ٩. مقتبس من تقريظ الكتاب للشيخ حسنين محمد مخلوف.

١٧- سورة آل عمران، الآية: ١٩١.

١٨- الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج ١، ص ٣٦١.

١٩- المصدر السابق: ج ٢، ص ٣٧٨-٣٧٩.

٢٠- المصدر السابق: ج ١، ص ٣٦١.

٢١- المصدر السابق: ج ٢، ص ٣٨١.

٢٢- المصدر السابق: ج ٢، ص ٣٧٩.

٤- الإسرار بالقراءة أفضل من الإجهار بها: أن على القارئ الإسرار بالقراءة لأن ذلك أبعد عن الرياء، كما أن الجهر يشوش على المصلين، أما إن كان في الليل ففي الجهر ما يطرد النعاس ويقلل من الكسل، ويرجو من جهره التسبب في إيقاظ نائم آخر(٢٣).

الأمر الثاني: متعلق بمقدار القراءة:

وذلك من حيث الاستكثار منها والاختصار، فهو يقسم الناس من حيث مقدار ختماتهم: فمن الناس من يختم القرآن في اليوم والليلة مرة، وبعضهم يختمه مرتين، وانتهى بعضهم إلى ثلاث. ومنهم من يختمه في الشهر مرة: وهذا يعدّ من المقصرين في نظر الغزالي، لأن الانقطاع عن القرآن مصيبة في الدين. وأولى ما يرجع إليه في التقديرات قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من قرأ القرآن في أقل من ثلاث لم يفقهه"(٢٤)، معللاً ذلك بأن الزيادة عليه تمنع صاحبها الترتيل. وبعد هذا أورد لنا درجتين معتدلتين وهما: ختمة في الأسبوع، والثانية: ختمتان في الأسبوع(٢٥).

الأمر الثالث:

أن يحزِّب القرآن حسب ختمته التي تناسبه، فقد حزَّب الصحابة رضي الله عنهم القرآن أحزاباً. لأن هذا التقسيم يشجع القارئ على أن يختم القرآن بسرعة، فهي بمثابة خطة لتسهيل القراءة على القارئ. ولعله اعتمد على حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من نام عن حزبه أو عن شيء منه فقرأه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر، كُتِب له كأنما قرأه من الليل"(٢٦). فوِرْد تلاوة القرآن، كما يظهر من الحديث الشريف، في الليل أفضل من النهار، وذلك لغفلة الناس ونومهم وسكونهم، فمن عمل عملاً بين غافلين، كان أفضل ممن عمله بين من يفعل فعله. كما أن القراءة في الليل أبعد عن الرياء والسمعة. فالأوراد ترفع من مكانة العبد عند الله تعالى، وتصفّي قلبه وتهيّئه، لكي يستقبل بركات الله والإفادة من تجلياته عزّ وجل. وتزداد تلك البركات في جوف الليل، لكن من نعم الله تعالى، أن

٢٣- المصدر السابق: ج ١، ص ٣٦٦.

٢٤- حديث "من قرأ القرآن في أقل من ثلاث لم يفقهه" أخرجه أصحاب السنن من حديث عبد الله بن عمرو وصححه الترمذي في **سننه**، كتاب: القراءات عن رسول الله، باب: ما جاء أن القرآن أنزل على سبعة أحرف. وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

٢٥- الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج ١، ص ٣٦١-٣٦٢.

٢٦- أخرجه الإمام مسلم في **صحيحه**، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض.

من طرأ له طارئ يمنعه من تنفيذ ذلك الورد أحد الأيام، فاستدركه في صباح اليوم التالي بين صلاة الفجر وصلاة الظهر، كان كأنما قرأه في جوف الليل.

الأمر الرابع: الترتيل:

لأن المقصود من القراءة التفكر، والترتيل معين عليه. والترتيل[٢٧] مستحب للتدبر، وهو ما أمر به الله تعالى بقوله: ﴿**وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيْلاً**﴾[٢٨]، وهو يعني عدم العجلة بقراءة الْقُرْآن، بَلْ لا بد للقارئ أن يقْرَأهُ على مَهَل وبإمعان في مع تَدَبُّر الْمعانِي.

الأمر الخامس: البكاء:

يعدّ البكاء مع القراءة عند الغزالي مستحباً لقوله صلى الله عليه وسلم، فهو يستشهد بحديث إسناده ضعيف: "اتلوا القرآن وابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا"[٢٩] ذلك أن البكاء عند قراءة القرآن صفة العارفين وشعار عباد الله الصالحين.

عنوان تأثر العبد بالتلاوة:

أولاً: أن يتصف القارئ بصفة الآية المتلوة: قال الغزالي: لا بد للقارئ "أن يصير بصفة الآية المتلوة، فعند الوعيد وتقييد المغفرة بالشروط، يتضاءل من خيفته كأنه يكاد يموت، وعند وعد المغفرة يستبشر، وهكذا... ولما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن مسعود رضي الله عنه: اقرأ عليَّ، قال: فافتتحت سورة النساء، فلما بلغت: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيْدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلآءِ شَهِيْدًا**﴾[٣٠] رأيت عينيه تذرفان، فقال لي: "حسبك الآن"[٣١]. وهذا لأن مشاهدة تلك الحالة استغرقت قلبه بالكلية. ولهذا روي عن ابن عباس قال: قال أبو بكر رضي الله عنه: "يا رسول الله قد شبتَ، قال: شيّبتني

٢٧- الترتيل لغة: التَّنْضِيد وَالتَّنْسِيق وَحُسْن النِّظَام.

٢٨- سورة المزمل، الآية: ٤.

٢٩- أخرجه ابن ماجة من حديث سعد بن أبي وقاص بإسناد جيد، وقال العراقي: إسناده ضعيف، أخرجه ابن ماجة (١٣٣٧) وفيه إسماعيل بن رافع، قال الحافظ في **التقريب**: ضعيف الحفظ. انظر: الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج ١، ص ٣٦٣.

٣٠- سورة النساء، الآية: ٤١.

٣١- أخرجه البخاري في **صحيحه** في: كتاب التفسير، باب: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيْدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلآءِ شَهِيْدًا**﴾.

هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كوّرت"[٣٢]. وفي رواية أخرى قال صلى الله عليه وسلم: "شيّبتني هود وأخواتها"[٣٣]. ولقد كان من الخائفين في الصحابة من خرّ مغشياً عليه عند آيات الوعيد، روى الغزالي في **الإحياء**: "أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سمع رجلاً يقرأ: ﴿ **إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ** ﴾[٣٤]، فصاح صيحة وخر مغشيًّا عليه، فحمل إلى بيته، فلم يزل مريضاً في بيته شهراً"[٣٥]. ومنهم من مات في سماع الآيات. يقول الغزالي: "روي أن زرارة بن أوفى ـ وكان من التابعين ـ كان يؤم الناس بالرقة فقرأ: ﴿ **فَإِذَا نُقِرَ فِيْ النَّاقُوْرِ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ** ﴾[٣٦] فصعق ومات في محرابه رحمه الله"[٣٧]. وسمع الشافعي رحمه الله قارئاً يقرأ: ﴿ **هَذَا يَوْمُ لاَ يَنْطِقُوْنَ وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُوْنَ** ﴾[٣٨] فغشي عليه"[٣٩].

ثانياً: أن يعلم القارئ أن الذي لا يؤثر فيه القرآن صاحب قلب قاس، قال الغزالي بعد أن ضرب أمثلة على الوجد والتأثر: وبالجملة لا يخلو صاحب القلب عن وجد عند سماع القرآن، فإن كان القرآن لا يؤثر فيه أصلاً فمثله: ﴿ **وَمَثَلُ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا كَمَثَلِ الَّذِيْ يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُوْنَ** ﴾[٤٠]، وإنما المحرك لما في القلب ما يناسبه[٤١]، بل صاحب القلب تؤثر فيه الكلمة من الحكمة يسمعها[٤٢]. ثم قال: "قال سهل رحمه الله: وكل تأثر ووجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل"[٤٣].

٣٢- أخرجه الترمذي في **سننه**، كتاب: تفسير القرآن عن رسول الله، باب: ومن سورة الواقعة.

٣٣- الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج ٢، ص ٣٧٤.

٣٤- سورة الطور، الآيتان: ٧ - ٨.

٣٥- الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج ٢، ص ٣٧٥.

٣٦- سورة المدثر، الآيتان: ٨ - ٩.

٣٧- الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج ٢، ص ٣٧٥.

٣٨- سورة المرسلات، الآيتان: ٣٥ - ٣٦.

٣٩- الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج ٢، ص ٣٧٥.

٤٠- سورة البقرة، الآية: ١٧١.

٤١- الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج ٢، ص ٣٧٧.

٤٢- المصدر السابق: ج ٢، ص ٣٧٦.

٤٣- المصدر السابق: ج ٢، ص ٣٨١.

حق التلاوة القرآنية في تصور الغزالي:

فمن حقِّ تلاوة القرآن أن يشترك في قراءة القارئ اللسان والعقل والقلب: فحظّ اللسان تصحيح الحروف بالترتيل، وحظّ العقل تفسير المعاني، وحظّ القلب الاتّعاظ والتأثر بالانزجار والائتمار. فاللسان يرتل والعقل يترجم والقلب يتّعظ.

المقصد والهدف من هذه التقسيمات:

١- أن يحرص المؤمن على بقاء الصلة بالقرآن، فالعلاقة يجب أن تكون متينة وقوية.

٢- إظهار عيب المهذرمين بالقرآن.

٣- بيان أن المقصود من القراءة هو التدبر، والترتيل معين عليه، ولذلك نعتت أم سلمة رضي الله عنها قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هي قراءة مفسرة حرفاً حرفاً(٤٤). وقال ابن عباس رضي الله عنه لأن أقرأ البقرة وآل عمران، أرتلها وأتدبرهما أحب إليّ من أن أقرأ القرآن هذرمة.

٤- إن الغزالي لا يعفي العجمي الذي لا يفهم معاني القرآن، من أن يقرأ بالترتيل والتؤدة لأن ذلك أقرب إلى التوقير والاحترام وأشد تأثيراً في القلب(٤٥).

٥- بيان القراءة الصحيحة للناس من خلال مصاحبتها بموضوع يتعلق بالجانب النفسي والتربوي وهو البكاء، حيث يعدّ ذلك مستحباً، وأن من لم يستطع البكاء فعليه بالتحزُّن، فمن الحزن ينشأ البكاء، حيث يتذكر تقصيره في جنب الله. فإن لم يحضره حزن وبكاء، مثل أرباب القلوب الصافية، فليبك على فقد الحزن والبكاء فإن ذلك أعظم المصائب(٤٦). فالتباكي في تصور الغزالي مجلبة للحزن، ولكن لا يرفع صوته بالبكاء ويقدر على ضبط نفسه(٤٧).

٦- الملاحظ في منهج الغزالي، أنه يأتي بالأمر المستحب فيحض عليه، ثم يأتي بما يخالفه فيكثر من مساوئه. فإن تكلم عن الترتيل مثلاً أشاد بفضله وأكثر من الآثار الواردة عليه، ثم جاء بما يناقضه وهو الهذرمة، فبيّن أنه لا قيمة لقراءة فيها هذرمة، وهو بهذا لم يعذر حتى العجم من قراءة القرآن بالترتيل والتؤدة، لأن ذلك أقرب إلى التوقير وأشد تأثيراً في قلب القارئ.

٤٤- أخرجه الترمذي في **سننه**، كتاب: فضائل القرآن عن رسول الله، باب: ما جاء كيف كانت قراءة النبي صلى الله عليه وسلم. وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث ليث بن سعد عن ابن أبي مليكة عن يعلى بن مملك عن أم سلمة.

٤٥- الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج ١، ص ٣٦٣.

٤٦- المصدر السابق: ج ١، ص ٣٦٣ - ٣٦٧.

٤٧- المصدر السابق: ج ٢، ص ٣٨٣.

منهج الغزالي في فهم القرآن:

ذكر في الباب الثالث من كتاب **الإحياء** والمعنون "في أعمال الباطن في التلاوة"، أن هناك أعمالاً عشرة لا بد أن يقوم بها تالي القرآن حتى يفهم معاني تلاوته، وهذه الأعمال هي: فهم أصل الكلام، ثم التعظيم، ثم حضور القلب، ثم التدبر، ثم التفهم، ثم التخلي عن موانع الفهم، ثم التخصيص، ثم التأثر، ثم الترقي، ثم التبري.

فالأول والثاني والثالث: فهم أصل الكلام وتعظيم المتكلم وحضور القلب:

فالله عزّ وجل تلطّف بعباده، حين أوصل إليهم معاني كلامه الذي هو صفة قديمة غير مخلوق، وهو بهذا يعترض على المعتزلة القائلين بخلق القرآن، "والذين ظنوا أن القرآن هو الحروف والأصوات، وبنوا عليها أنه مخلوق، لأن الحروف والأصوات مخلوقة، وما أجدر هؤلاء بأن يرجموا أو ترجم عقولهم"(٤٨)، إذ لولا رحمة الله لعجز البشر عن الوصول إلى فهم صفات الله عزّ وجل ولكنه أفهمهم ذلك بوسيلة صفات نفسه. وعليه فلا بد للقارئ عند البداية بتلاوة القرآن مما يلي:

١- أن يحضر في قلبه عظمة المتكلم.

٢- ويعلم أن ما يقرؤه ليس من كلام البشر (وهو ما أسميناه قدر الخطاب).

٣- إن في تلاوة كلام الله عزّ وجل غاية الخطر فإنه تعالى قال: ﴿**إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيْمٌ فِيْ كِتَابٍ مَّكْنُوْنٍ لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُوْنَ**﴾(٤٩) أي من طهرت قلوبهم من الرجس واستنارت بنور التعظيم والتوقير، ولهذا يقول الغزالي: "وكما لا يصلح لمس جلد المصحف كل يد، فلا يصلح لتلاوة حروفه كل لسان، ولا لنيل معانيه كل قلب"(٥٠). مما يجب على القارئ أن يحضر بقلبه أثناء التلاوة وأن يترك حديث النفس، ويستشهد بقراءة بعض السلف الذين إذا قرأوا الآيات دون حضور قلب أعادوا قراءتها، فالحضور يأتي نتيجة للتعظيم وعدم الانشغال بغيره عنه. وإن استمع لآيات الله تتلى، "فعليه أن يقلل من الالتفات، مشتغلاً بنفسه، ومراعاة قلبه، ومراقبة ما يفتح الله تعالى له من رحمته في سره، هادئ الأطراف، لا يتثاءب، ويجلس مطرق الرأس، متماسكاً عن الحركات على وجه التصنع، والتكلف والمراءاة، ساكتاً عن النطق"(٥١).

٤٨- حجة الإسلام محمد بن محمد أبو حامد الغزالي، **جواهر القرآن ودرره**، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ٥، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص ١٩.

٤٩- سورة الواقعة، الآيات: ٧٧ - ٧٩.

٥٠- الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج ١، ص ٣٦٩.

٥١- المصدر السابق: ج ٢، ص ٣٨١ - ٣٨٢.

والرابع والخامس: التدبر والتفهم:

المقصود من القراءة التدبر، قال سبحانه وتعالى: ﴿**كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوْا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوْا الْأَلْبَابِ**﴾(٥٢) وحدُّه في اللغة: النظر في عواقب الأمور(٥٣)، وطريقه الترتيل، وهذا يقتضي النظر إلى ما تصير إليه عاقبة الآيات في الجملة، وهذا يدفع للعمل بما تم تدبره لاستحضار العاقبة، فتدبر القراءة يقصد منه إلحاقه بالعمل. والغزالي جعل تدبر القرآن بالطرق التالية:

١- النظر في عواقب الآيات، وما تصير إليه في الجملة.

٢- إتباع قراءة القرآن بعمل، وبما تم تدبره لاستحضار العاقبة، لأنه الأمر الذي تدعو إليه عاقبته عند من تأمله، لا بد من تحويله إلى عمل.

٣- الترديد: من لم يستطع التدبر فعليه بالترديد، إلا أن يكون في وراء إمام. وهو ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بنا ليلة، فقام بآية يرددها، وفي رواية: فقرأ بآية حتى الصباح يركع بها ويسجد بها، وهي: ﴿**إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيْزُ الْحَكِيْمُ**﴾(٥٤)،(٥٥). فلما أصبح، قلت: يا رسول الله، ما زلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحت، تركع بها وتسجد بها؟ قال: "إني سألت ربي عزّ وجل الشفاعة لأمتي، فأعطانيها، وهي نائلة إن شاء الله لمن لا يشرك بالله شيئاً"(٥٦).

أما التفهُّم أو التعقُّل والتأمُّل للآيات فحدُّه: "أن يستوضح من كل آية ما يليق بها"(٥٧). ولقد

٥٢- سورة ص، الآية: ٢٩.

٥٣- جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، **أساس البلاغة**، دار بيروت، بيروت، ط ١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، ص ١٨٢.

٥٤- سورة المائدة، الآية: ١١٨.

٥٥- حديث أبي ذر رضي الله عنه: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فينا ليلة بآية يردّدها وهي: ﴿**إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ**﴾ أخرجه النسائي في الافتتاح، باب الترديد، وأخرجه ابن ماجة بسند صحيح في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: ما جاء في القراءة في صلاة الليل.

٥٦- رواه أحمد في **مسنده** في مسند الأنصار رضي الله عنهم، حديث أبي ذر الغفاري رضي الله تعالى عنه، وانظر: إسماعيل بن كثير، **مختصر تفسير ابن كثير**، اختصار وتحقيق: محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت، ط ٧، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨١م، ج ١، ص ٥٦٥.

٥٧- الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج ١، ص ٣٧٠.

كانت بداية مقومات الصوفية الذاتية التأمل في آيات القرآن، ومحاولة استكشاف أسرارها العميقة، واقتناص مراميها البعيدة. فالقرآن يشتمل على ذكر صفات الله عزّ وجل وذكر أفعاله، وذكر أحوال الأنبياء عليهم السلام، وذكر المكذبين وكيف أهلكوا، وذكر أوامره وزواجره، وذكر الجنة والنار. وعلى القارئ أن يتفهَّم صفات الله كصفات أنه الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن..إلخ. فليتأمل معاني هذه الأسماء والصفات لينكشف له أسرارها(٥٨).

وأما أفعاله سبحانه وتعالى فكذكره خلق السموات والأرض وغيرها، فليفهم التالي أن الفعل يدل على الفاعل، وأفعاله تعالى تدل على عظمته، فينبغي أن يشهد في العقل الفاعل دون الفعل، فمن عرف الحق رآه في كل شيء، إذ كل شيء فهو منه وإليه، وبه وله، فهو الكل على التحقيق، ومن لا يراه في كل ما يراه، فكأنه ما عرفه، ومن عرفه عرف أن كل شيء ما خلا الله باطل، وأن كل شيء هالك إلا وجهه(٥٩).

وأما أحوال الأنبياء عليهم السلام، فإذا سمع منها كيف كُذِّبُوا وضُرِبوا وقُتِل بعضهم، فليفهم منه صفة الاستغناء لله عزّ وجل عن الرسل والمرسل إليهم، وأنه لو أهلك جميعهم لم يؤثر في ملكه شيئاً، وإذا سمع القارئ نصرتهم في آخر الأمر، فليفهم قدرة الله عزّ وجل وإرادته لنصرة الحق(٦٠).

وأما أحوال المكذبين كعاد وثمود وما جرى عليهم، فليكن فهمه منه استشعار الخوف من سطوة الله ونقمته، وليكن حظه منه الاعتبار في نفسه، وأنه إن غفل وأساء الأدب واغتر بما أمهل، فربما تدركه النقمة وتنفذ فيه القضية(٦١).

وكذلك إذا سمع وصف الجنة والنار وسائر ما في القرآن فلا يمكن استقصاء ما يفهم منه لأن ذلك لا نهاية له، وإنما لكل عبد بقدر رزقه، قال سبحانه وتعالى: ﴿ **قُلْ لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّيْ لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّيْ وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا** ﴾(٦٢) ولذلك قال علي رضي الله عنه: "لو شئت لأوقرت سبعين بعيراً من تفسير فاتحة الكتاب"(٦٣). فالغرض مما ذكرناه التنبيه على طريق التفهيم لينفتح

٥٨- المصدر السابق: ج ١، ص ٣٧٠.

٥٩- المصدر السابق: ج ١، ص ٣٧١.

٦٠- المصدر السابق: ج ١، ص ٣٧١.

٦١- المصدر السابق: ج ١، ص ٣٧١.

٦٢- سورة الكهف، الآية: ١٠٩.

٦٣- الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج ١، ص ٣٧١.

بابه، ومن لم يكن له فهم ما في القرآن، ولو في أدنى الدرجات، دخل في قوله تعالى: ﴿**وَمِنْهُم مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوْا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوْا لِلَّذِيْنَ أُوتُوْا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُوْلَئِكَ الَّذِيْنَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوْبِهِمْ وَاتَّبَعُوْا أَهْوَآءَهُمْ**﴾(٦٤)، والطوابع هي موانع الفهم(٦٥).

السادس: التخلي عن موانع الفهم:

فإن أكثر الناس منعوا عن فهم معاني القرآن لأسباب وحجب، أسدلها الشيطان على قلوبهم، فعميت عليهم عجائب أسرار القرآن.

موانع وحجب الفهم عند الغزالي أربعة(٦٦):

أولها: أن يكون الهمُّ منصرفاً إلى تحقيق الحروف بإخراجها من مخارجها، وهذا يتولى حفظه شيطان وُكِّل بالقرَّاء، ليصرفهم عن فهم معاني كلام الله عزّ وجل، فلا يزال يحملهم على ترديد الحرف، يخيَّل إليهم أنه لم يخرج من مخرجه، فهذا يكون تأمله مقصوراً على مخارج الحروف، فأنَّى تنكشف له المعاني، وأعظم ضحكة للشيطان من كان مطيعاً لمثل هذا التلبيس.

هذا الجانب المهاري يرفضه الغزالي ويعدّه مانعاً من موانع الفهم، رغم أن علماء القراءات والتجويد عدّوه فرض عين على كل مسلم قارئ للقرآن. لكن الأنسب في هذه المسألة هو الاعتدال، حيث لا إفراط ولا تفريط، فكيف أفهم كتاب الله وأتدبره من غير قراءة صحيحة.

ثانيها: أن يكون مقلِّداً لمذهب معيّن وتعصّب له دون تبصّر، فهذا شخص قيَّده تقليده، ولا يمكن أن يخطر بباله غير معتقده، وبهذا فإن بدا له معنى من معاني القرآن المختلفة مع تقليده، حمل عليه شيطان التقليد حملة وقال له: كيف يخطر هذا ببالك، وهو خلاف معتقد آبائك. ولمثل هذا قالت الصوفية: إن العلم الحقيقي هو الكشف والمشاهدة بنور البصيرة. والتقليد يمنع من الحصول على هذا العلم، وهو مانع من الفهم والكشف.

إن ما تبناه الغزالي من أن التعصب لمذهب معين يمنع الفهم السليم للآيات أمر صحيح، ولكن قوله: إن العلم الحقيقي هو الكشف، أمر عام بحاجة إلى نظر وتدقيق وتقييد، وحاجته إلى التقييد ضرورة عند ابن خلدون، حيث قال: "ثم إن هذا الكشف لا يكون صحيحاً كاملاً عند الصوفية إلا إذا كان ناشئاً

٦٤- سورة محمد، الآية: ١٦.

٦٥- الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج ١، ص ٣٧١ - ٣٧٢.

٦٦- المصدر السابق، ج ١، ص ٣٧٢ - ٣٧٣.

عن استقامة، فهو يحصل لصاحبِ الجوع والخَلوة، وإن لم يكن هناك استقامة كالسحرة وغيرهم... وليس مرادُنا إلا الكشف الناشئ عن الاستقامة، ولما عُني المتأخرون بهذا النوع من الكشف، تكلموا في حقائق الموجودات العلوية والسفلية، وحقائق الروحِ والعرش والكرسي وأمثال ذلك، وقصُرت مدارك من لم يشاركهم في طريقهم عن فهم أذواقهم في ذلك. وأهل الفتيا بين منكر عليهم ومسلِّم لهم، وليس البرهان والدليل بنافع في هذه الطريق، ردّاً وقبولاً، إذ هي من قبيل الوجدانيات"(٦٧).

ثالثها: أن يكون مستسلماً لشهواته مصرّاً على ذنوبه، فذلك قلبه يكون مظلماً صدِئاً، ذلك أن الاستسلام للشهوات أعظم حجاب وأكبر مانع للفهم. وكلما خَـفَّ عن القلب حجاب الشهوة، اقترب من تجليات المعاني. وقد شرط الله عزّ وجل الإنابة في الفهم والتذكير، قال جل جلاله: ﴿ **تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيْبٍ** ﴾(٦٨) وقال سبحانه وتعالى: ﴿ **وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَنْ يُنِيْبُ** ﴾(٦٩). ومن آثر غرور الدنيا على نعيم الآخرة، فليس من ذوي الألباب ولا تنكشف له أسرار الكتاب.

رابعها: أن يكون قد قرأ تفسيراً ظاهراً، واعتقد أنه لا معنى لكلمات القرآن إلا ما تناوله نقل ابن عباس ومجاهد وغيرهما، وأن ما وراء ذلك تفسيرٌ بالرأي. فهذا أيضاً من الحجب العظيمة المانعة لفهم القرآن عند الغزالي. والمدقق يجد هنا أن الغزالي يعيب بشدة من يحصرون مدارس التفسير واتجاهاته بالتفسير بالمأثور، وأنه لا تفسير إلا ما نقل عن الصحابة أو التابعين وخصوصاً ابن عباس ومجاهد، وهو من مؤيدي التفسير بالرأي المحمود.

السابع والثامن والتاسع والعاشر: التخصيص والتأثر والترقي والتبري:

يحث الغزالي القارئ لكتاب الله جل جلاله أن يفهم أنه المقصود بكل خطاب في القرآن، فإن قرأ أمراً أو نهياً، قَدَّر أنه المنهي والمأمور وحده، وإن سمع وعداً أو وعيداً كانت نفسه هي التي سمعت الوعد والوعيد، وهكذا في كل مواضيع الخطاب القرآني. والقصد من كل ذلك العبرة والفائدة لنفسه، وفؤاده في الصبر والتثبيت، وهذا هو التخصيص.

أما التأثّر: فقد أمر الله سبحانه وتعالى عباده شكره على نعمة إنزال الكتاب، قال عزّ وجل: ﴿ **وَاذْكُرُوْا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُوْا اللهَ وَاعْلَمُوْا أَنَّ اللهَ**

٦٧- ابن خلدون، **المقدمة**، ص ٣٨٣.

٦٨- سورة ق، الآية: ٨.

٦٩- سورة غافر، الآية: ١٣.

﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيْمٌ﴾[٧٠]. ولهذا كان على القارئ أن يتأثر بآثار مختلفة بحسب اختلاف الآيات، فيكون له بحسب كل فهم حال من الخوف والرجاء وغيره. فإذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنِّيْ لَغَفَّارٌ﴾[٧١] ثم أتبع ذلك بأربعة شروط: ﴿لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾[٧٢]. تأثّر بقوله عزّ وجل، وأصبح جل همه أن يطبق هذه الشروط، علَّه ينال رحمة الله بشرط منها[٧٣].

وأما الترقي: فهو أن يترقى القارئ إلى أن يسمع الكلام من الله سبحانه وتعالى لا من نفسه، ولهذا فإن الغزالي قد صنّف القراءة إلى درجات ثلاث:

أولاً: أن يقدر العبد كأنه يقرأ القرآن على الله عزّ وجل واقفاً بين يديه، وهو ناظر إليه ومستمع منه، فيكون حاله عند هذا التقدير السؤال والتضرع والابتهال. وهذه درجات الغافلين.

الثانية: أن يشهد بقلبه كأن الله جل جلاله يراه ويخاطبه بألطافه ويناجيه بإنعامه وإحسانه، فمقامه الحياء والتعظيم والإصغاء والفهم. وهذه درجة أصحاب اليمين.

الثالثة: أن يرى في الكلام المتكلم، وفي الكلمات الصفات، فلا ينظر إلى نفسه ولا إلى قراءته، بل يكون مقصور الهم على المتكلم، موقوف الفكر عليه، كأنه مستغرق بمشاهدة المتكلم عن غيره. وهذه درجة المقربين. وهي درجة خاصة لأهل التصوف والكشف[٧٤]. وإليك هذا المثال: قال بعض الحكماء كنت أقرأ القرآن فلا أجد له حلاوة حتى تلوته كأني أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلوه على أصحابه، ثم رفعت إلى مقام فوقه، فكنت أتلوه كأني أسمعه من جبريل عليه السلام يلقيه على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم جاء الله بمنزلة أخرى، فأنا الآن أسمعه من المتكلم به، فعندها وجدت له لذة ونعيماً لا أصبر عنه. وقال عثمان وحذيفة رضي الله عنهما: لو طهرت القلوب لم تشبع من قراءة القرآن، وإنما قالوا ذلك، لأنها بالطهارة تترقى إلى مشاهدة المتكلم في الكلام، وبمشاهدة المتكلم دون ما سواه يكون العبد ممتثلاً لقوله عزّ وجل: ﴿فَفِرُّوْا إِلَى اللهِ﴾[٧٥] فمن لم يره في كل شيء فقد رأى غيره[٧٦].

٧٠- سورة البقرة، الآية: ٢٣١.

٧١- سورة طه، الآية: ٨٢.

٧٢- سورة طه، الآية: ٨٢.

٧٣- الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج ١، ص ٣٧٤.

٧٤- المصدر السابق، ج ١، ص ٣٧٧.

٧٥- سورة الذاريات، الآية: ٥٠.

٧٦- الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج ١، ص ٣٧٧.

وأما التبرّي: فقد عنى الغزالي بهذا الموضوع عناية تامة، وذلك لما أمر القارئ بأن يتبرأ من حوله وقوته، والالتفات إلى نفسه بين الرضا والتزكية، فإذا تلا آيات الوعد للصالحين، فلا يشهد نفسه عند ذلك، ويتشوف إلى أن يلحقه الله عزّ وجل بهم، وإذا تلا آيات المقت وذم المقصرين شهد على نفسه هناك، وقدر أنه المخاطب إشفاقاً. ولذلك كان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: اللهم إني أستغفرك لظلمي وكفري، فقيل له: هذا الظلم فما بال الكفر، فتلا قوله عزّ وجل: ﴿ **إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ لَظَلُوْمٌ كَفَّارٌ** ﴾ (٧٧)،(٧٨). كل ذلك قصد منه الغزالي عدم ركون المرء إلى نفسه، فإن ركن إلى ذاته وعمله كسل، والمؤمن يجب أن يكون دائم الطلب لرحمة الله.

الأسس الرئيسة التي يعتمد عليها الغزالي في فهمه للقرآن:

الأساس الأول: عدم تجاوز وتجاهل قيمة العربية ودلالاتها في فهم معاني ألفاظ القرآن، وهنا يضرب الغزالي أمثلة للباطنية الذين يدعون إلى مجاهدة القلب القاسي، فيقولون: "قال الله عزّ وجل: ﴿ **اِذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى** ﴾ (٧٩)، ففسروا فرعون بالقلب، وكان يشير الواحد منهم إلى قلبه حين يتلو الآية"(٨٠). وهذا الجنس قد يستعمله بعض الوعاظ في المقاصد الصحيحة ترغيباً للمستمع، وهو ممنوع، وقد تستعمله الباطنية في المقاصد الفاسدة لدعوة الناس إلى مذهبهم الباطل، فينزلون القرآن على وفق مذهبهم على أمور يعلمون قطعاً أنها غير مرادة به، فهذه الفنون أحد وجهي المنع من التفسير بالرأي، والذي قصد منه الرأي الفاسد الموافق للهوى دون الاجتهاد الصحيح(٨١)، وهذا ناتج عن عدم تدبر القرآن، فيفسره بما يخطر له من بادي الرأي دون إحاطة بجوانب الآية ومواد التفسير، مقتصراً على بعض الأدلة دون بعض، كأن يعتمد على ما يبدو في الظاهر من وجه العربية فقط(٨٢).

الأساس الثاني: معرفة مقاصد العرب من كلامهم وعاداتهم في الخطاب، وهذا ما أكد عليه ابن عاشور بقوله: "أما العربية فالمراد منها: معرفة مقاصد العرب من كلامهم وأدب لغتهم، سواء حصلت تلك المعرفة بالسجية والسليقة، فقد كانت قواعد العربية طريقاً لفهم معانيه، وبدون ذلك يقع سوء الفهم لمن ليس بعربي بالسليقة، ويعنى بقواعد العربية مجموع علوم اللسان العربي، وهي: متن اللغة والتصريف والنحو والمعاني والبيان"(٨٣).

٧٧- سورة إبراهيم، الآية: ٣٤.

٧٨- الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج ١، ص ٣٧٧ – ٣٧٨.

٧٩- سورة النازعات، الآية: ١٧.

٨٠- الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج ١، ص ٣٨١.

٨١- المصدر السابق، ج ١، ص ٣٨١.

٨٢- ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ١، ص ٢٨.

٨٣- سماحة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور**، مؤسسة التاريخ، بيروت، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، ج ١، ص ١٦.

الأساس الثالث: الاهتمام بالسياق القرآني في بيان المعنى. ونقصد بالسياق: الجو العام الذي يحيط بالكلمة وما يكتنفها من قرائن وعلامات. فالسياق له أثر كبير على مقصود دلالة المتكلم أو الكلمة، ذلك أن الكلمة الواحدة والجملة الواحدة قد تحمل مدلولين متناقضين تماماً دون أن تختلف الكلمة في بنائها الداخلي، وإنما الذي تغير هو السياق والقرائن المحيطة. ولهذا فقد عد السياق شرطاً مهماً في التفسير. فالقرآن قد نظم بمشيئة إلهية على شكل سور، تشكل كل سورة منه وحدة قرآنية مستقلة، كما أن موضع كل كلمة وجملة وآية في القرآن قد حدد تحديداً ربانياً في سياق السورة وبنيتها لإبراز المعنى المراد.

والغزالي يحذر من الفهم التجزيئي للقرآن، أو ما يسمى بـ "الفهم النصفي" أو "النظرة التجزيئية" لمعاني الآيات. وذلك حين استغل بعض الباطنية الوعاظ "مقاصدهم الفاسدة لتغرير الناس، ودعوتهم إلى مذاهبهم الباطلة، فينزلون القرآن وفق رأيهم ومذهبهم على أمور يعلمون قطعاً أنها غير مرادة"(٨٤).

الأساس الرابع: الاعتقاد بأن التكرار لا مكان له في القرآن، قال الغزالي في مورد تعليقه على قوله تعالى: ﴿ **اَلرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ** ﴾ (٨٥) "ولا تظنن أنه مكرر، فلا تكرر في القرآن، إذ حد المكرر ما لا ينطوي على مزيد فائدة"(٨٦).

الأساس الخامس: لا ترادف في أسماء الله الحسنى، فهي متباينة وليست مترادفة، لأنها متباينة في المعنى، كقوله تعالى: ﴿ **اَلرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ** ﴾ (٨٧) فهما اسمان متباينان(٨٨).

الأساس السادس: تبنّي النهج الباطني في التفسير، وهذا في نظر الإمام الغزالي ضرورة للوصول إلى حقائق معاني القرآن، فقد قام الغزالي بتقسيم الأعمال إلى ظاهرة وباطنة، حتى في أغلب مواضيع التعبد لله، وعدّ ذلك ضرورة بسبب انصراف الناس عن الباطن إلى الظاهر من الأمور المتعلقة بالقرآن، فهناك اهتمام زائد بالرسوم الشكلية كالقراءة بالتجويد والنطق السليم والانشغال عن المعاني الباطنية إلى علوم الفقه والكلام والشعر وغيرها. فهذه في تصوره هي تلاوة الغافلين وهي مذمومة باعتبارها تتخلف عن العمل به، ذلك أن القرآن ينبغي لقارئه أن يتلقاه بالعظمة والهيبة والإجلال.

٨٤- الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج ١، ص ٣٨١.

٨٥- سورة الفاتحة، الآية: ٣.

٨٦- الغزالي، **جواهر القرآن**، ص ٣٩.

٨٧- سورة الفاتحة، الآية: ٣.

٨٨- الغزالي، **جواهر القرآن**، ص ٣٩.

وفي تصوري، هذا خطأ في حق كتاب الله عزّ وجل، وتعطيل وإلغاء لكلام الله، لأن القرآن كله لفظ ومعنى، ونظم وبيان، وقاءٌ وشفاءٌ. فمن قرأه بحروفه وكلامه ولفظه كالعجمي فقد شفي، ومن فهم كلامه كالعربي فقد شفي، ومن تدبره لفظاً ومعنى ونظماً كالمتخصص فقد شفي، ومن عمل به فقد اهتدى وشفي. وهو في تصوري مثل الدواء الذي نشربه ولا نعرف مكوناته ونستفيد منه، لأن الله تعالى وضع فيه خاصية الشفاء، يتناوله المريض فيشفيه الله عز وجل. لكن القادر على التدبر والتفهم ولا يفعل، فقد لوّمه الله وعاتبه، لِمَ لَمْ يتدبر القرآن، قال تعالى: ﴿ **أَفَلاَ يَتَدَبَّرُوْنَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوْا فِيْهِ اخْتِلاَفًا كَثِيْرًا** ﴾(٨٩). يقول عبد الرحمن حسن حبنكة: "وفي الاستفهام الإنكاري تلويم لهم على ترك التدبر، لأن التدبر المنشود يقصد منه البحث عن الحقيقة، والمقرون بالإخلاص سوف يكشف لذوي الاستعداد من الناس أن هذا القرآن حق كله، وأنه منزل من عند الله تعالى، ما في ذلك ريب أنه لو كان من عند غير الله لاشتمل على اختلاف كثير مع الواقع والحقيقة"(٩٠).

الخاتمة:

أولاً: انبثق أداء الغزالي في التعامل مع القرآن من إدراكه الكبير والعميق لغايات القرآن ومقاصده وأهدافه الكبيرة.

ثانياً: هناك علماء كثر سبقوا الغزالي وكتبوا عن القرآن، وعالجوا مسألة آداب القارئ للقرآن، ككتاب **فضائل القرآن** لأبي عبيد القاسم بن سلام، وكتاب **أخلاق حملة القرآن** لأبي بكر الآجري، وهو مصنف قيِّم، والقرطبي في مقدمة تفسيره بيَّـن فضائل القرآن وآداب التلاوة، ولا ننسى ما صنّفه النووي في كتابه المعروف **التبيان في آداب حملة القرآن**، وغيرهم كثير، مثل الزركشي في **البرهان** والسيوطي في **الإتقان**، لكن المدقق يجد أن الذي يغلب على هذه الكتابات طابع الرواية والسرد، لأنها جمعت أو لخّصت أو اكتست بالطابع الفقهي. أما كتابات الغزالي فللموضوعية نقول: بأنها كتابات تميزت بالدقة والعمق، فالأسلوب الذي سلكه الغزالي قائم على الاستقراء والتحليل العميق والاستنباط القوي لأفكار جديدة. وله إضافات قوية إلى كلام العلماء السابقين. هذا لا يعني أن الغزالي لم يستفد ممن سبقوه في هذا المجال،

٨٩- سورة النساء، الآية: ٨٢.

٩٠- عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: **قواعد التدبرالأمثل لكتاب الله عزّ وجل**، دار القلم، دمشق، ط ٢، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، ص ١٠-١١. وانظر: رضوان جمال الأطرش، **عرض منهجي في التفسير التحليلي ـ سورة النساء نموذجاً**، مركز البحوث في الجامعة الإسلامية العالمية، كوالالمبور، ماليزيا، ط ١، ٢٠٠٤م، ص ٢٩٩.

فقد استفاد من رسالة الآجري الموسومة: **أخلاق حملة القرآن**. لكن ما ميّز الغزالي أنه يفصِّل ويحلِّل ويؤكِّد على ضرورة ربط القرآن بالعمل.

ثالثاً: إن منهج الغزالي في فهم الآيات وتفسيرها، لا يقتصر على التفسير بالمأثور، بل إنه عَدّ الاقتصار عليه مانعاً من موانع الفهم، ولهذا دعا إلى التفسير بالرأي المحمود.

رابعاً: بالنسبة لمدى صلاحية هذا المنهج في التعامل مع القرآن قراءة وفهماً وتفسيراً، فإني أعتقد أنه صالح ولكنه صعب التطبيق، وهذا من أسرار الإحجام من كثير من العلماء عن التأثر بما كتبه الغزالي، فالذي تبناه الغزالي من أسس للتعامل مع القرآن نتج عن تجربة ذاتية وخبرة وممارسة شخصية، جاء بعد رياضة شاقة وتدريب مستمر. فما قرره الغزالي ليس سهلاً على العوام اتباعه، فهو صعب المنال لما احتوى على شدة بالغة. ناهيك عن صدود الناس عن منهج الغزالي الذي اعتمد على كثير من الأحاديث الموضوعة والإسرائيليات، كل ذلك ألغى شيوع هذا العمل القيّم وعطل انتشاره.

خامساً: هناك ثلاثة جوانب اعتمد عليها الغزالي في تناوله لهذا الموضوع:

الجانب الأول: الجانب المعرفي:

والذي يقتصر فيه القارئ على الألفاظ والأحكام الشرعية والمعلومات والمفاهيم حتى تصبح جزءاً من شخصيته وتكوينه، وهذا جانب مذموم.

الجانب الثاني: الجانب المهاري:

وفي هذا الجانب يركز القارئ على مهارة التلاوة، فيتدرب على التلاوة والفصاحة والنطق السليم وإخراج كل حرف من مخرجه وينشغل بجمال الصوت والترتيل، وهذا أيضاً جانب مذموم عند الغزالي.

الجانب الثالث: وهو الجانب الانفعالي التأثيري:

ويعتمد هذا الجانب على درجة التفاعل بين القارئ والمعاني الباطنية، مما يشعر بالمسؤولية الملقاة على عاتق القارئ، فلو كانت القراءة خالية من الروح والانفعال والتأثر والتفاعل، كانت القراءة خالية من الروح، وإذا تناولناها بتفاعل حققت تعظيم القرآن الكريم وإجلاله، وفرض هيمنة القرآن الكريم على نفس القارئ ومشاعره وسلوكه حتى يكون أمره ونهيه فوق كل رغبة واجتهاد. ويكون ذلك بتدبر القرآن الكريم وتفهُّم معانيه الباطنة والتأمل في معاني الآيات التي تتلى. ثم يسعد بتوظيف معاني الآيات الباطنة في تحسين السلوك وإصلاح العمل.

* * * *